صور الحياة في الثقافة والفلكلور الكردي

أ. د. فؤاد حمه خورشيد

يتضمن الفلكلور الكردي أحداثاً مهمة وشاملة لحياة الشعب الكردي السالفة عبر القصص الشعبية والاشعار الملحمية والامثال والحكم والاساطير والحكايات والطرائف والنكات، فهي تمثل صوراً شتى للحياة العامة في هذا المجتمع العريق بما في ذلك فنونهُ واحتفالاتهِ وسلوكهِ.

ولعل أول من أستخدم مصطلح الفلكلور هو عالم الدراسات الانكليزي وليام جون توماس في سنة ١٨٤٦ ويرجع أصل هذا المصطلح الى أصلين سكسونيين هما: فولك: ومعناها الشعب ولور: اي الدراسة أو العلم. ويراد بهذا المصطلح الادب غير المكتوب لشعب من الشعوب كالاساطير والافكار الشعبية والحكم المتداولة وكل ما يعبر عن أحوالهم، كما يتخذه البعض مفهوماً شاملا للثقافة الشعبية ليدخل ضمنها الفنون والحرف الشعبية والطقوس الدينية والأحتفالات وكل ما يشير الى نفسية ذلك الشعب وسلوكه وخلقهِ وحياته الاجتماعية والاقتصادية! والغريب في الأمر أن كل الاشعار الفلكلورية والامثال والحكم والعديد من الملاحم الشعرية والغنائية في التراث والفلكلور الكردي لايعرف مصدرها الأصلي أو مؤلفها أو قائلها، رغم أنتشارها، لهذا فهي في المحصلة تعتبر من نتاج فكر الامة الكردية بأجمعها تناقلتها اجيالها جيلاً بعد جيل، ولأن هذا الموضوع شائك وطويل فأننا سنتناول الفلكلور والتراث الكردي من هذه الزوايا حصراً:

الأقاصيص الشعبية:

يعتبر هذا النوع من التراث من روائع الادب الكردية، قد تكون مأساوية (تراجيدية) أو كوميدية أو تعبير عن البطولة أو حالة انسانية وطنية مثل أقصوصة (ممي الآن) (ومم وزين). وقد تكون مقتبسة من تراث شعوب أخرى مصاغة بلون جديد مثل قصة التي هي في الاصل قصة مجنون ليلى العربية.

عيد النوروز:

هو أهم الاعياد القومية فهذا العيد (اسطورة كان أو واقعاً) له علاقة بحدثين مهمين أولهما: فلكي يرتبط بيوم ٢١ آذار وهو يوم تعامد الشمس على منتصف الكرة الارضية (خط الاستواء) جالبة الاعتدال الربيعي الى نصف الكرة الشمالي الذي تقع فيه كردستان، والاعتدال الخريفي الى النصف الجنوبي حيث تتساوى فيه ساعات الليل والنهار وينقشع البرد والزمهرير، وتبدأ الزهور بالتفتح وتكتسي الطبيعة بلونها الاخضر والملون فهو عيد الربيع. والحدث الثاني يرتبط بثورة (كاوه الحداد) الرمز الذي حرر الشعب الكردي في التاريخ القديم من ظلم وطغيان الحاكم المستبد (الضحاك) فهو يوم يرمز للتحرر والانعتاق من السلطة الدكتاتورية الظالمة المستبدة، فهو عيد الحرية والتحرر، وهو بذلك يعبر عن تعطش الجماهير للحياة الجديدة السعيدة. ونوروز عيد لدى جميع الكرد دون إستثناء: ويمثل هذا اليوم (٢١ آذار) بداية رأس السنة الجديدة في التقويم الكردي وأبتداء من عام ٧٠٠ ق.م. يشير العلامة المرحوم توفيق وهبي الى طقوس هذا العيد في القرون الماضية بما يلي:

كان أهالي السليمانية يخرجون من المدينة صبيحة هذا العيد، ثم يلتئم شملهم في موضع الحفل، وهناك يتوجون أحدهم ملكاً أو يعينون لهُ حرساً وبطانة. ويمتطي الملك ظهر ثور، ويشق به الجموع الحاشدة تتبعهُ بطانتهُ نحو سرادق ضربت في الخيام، فيجلس المحتفلون في الدواوين وتنصب قدور الطعام. ويتنكر أفراد مخصصون ويلبسون جلود الغنم والماعز ليمثلوا الحيوانات الداجنة طوال فترة الاحتفالات التي تستمر ثلاثة ايام كاملة. وتكون طاعة الملك المتوج طاعة عمياء وله أن يفرض غرامات وأتاوات عن الناس حاضرهم وغائبهم، ويظل متمتعاً بلقب (الباشا) الى مناسبة العيد التالي.

الأمثال والحكم والفكاهة:

الامثال والحكم اقوال مختصرة بليغة لها دلالات ومعان، ولكل من ابرز ما في التراث الكردي الامثال والحكم التي مثلت رافداً حيوياً من روافد الثقافة الكردية وهي تمثل حكم الاقدمين ونتاجاً شعبياً قديماً ومتوارثاً مأخوذاً من كلام الناس أو أحداثهم وتجاربهم الحياتية فهي ترمز لكل حالة او وضع أخلاقي أو اجتماعي او سياسي، أصبحت معه تمثل هوية أخلاقية وأجتماعية للشعب الكردي لانها نابعة أو ناتجة عن حدث أو معاناة أو صورة من صور هذا المجتمع.

- قمم الجبال لاتلتقي، لكن العيون تلتقي. (عتاب للذي لا وفاء له)
- مسد القنفذ على اشواك فراخه فقال : كم هي ناعمة (دلالة للأعتزاز بالأبناء او بفعل الذات)
- إذا كان اللص من أهل البيت، فلا داعي لغلق الابواب. (واضح)
- ذو الفقار ليس لكل من يحمل اسم علي (اي ان المروءة والشجاعة ليست من سمات كل الرجال)
- هذا العجين يحتاج الى ماء كثير (للكلام الذي لامعنى له)
- عندما يصيح الديك في غير أوانه، يذبح. (مصدر للأزعاج).
- لو لم تمد يدك الى الموقد، لما أحترقت يدك(لاتقترب من المشكلة كي لا تتورط).
- إعط الخبز للكلب ولا تعطيهِ لناكر الجميل(واضح).
- فكاهة كردية: قالت امرأة مرة لابنها: بني الحمد لله لقد كبرت ولا داعي بعد اليوم لأن تنام بجانبي. فقال الأبن ببراءته: ياأمي لماذا اذن ينام والدي بجانبك هل هو صغير مثلي!
- سئل الربيع مرة: ماسبب قصر عمرك، فاجاب: لعنة الله على الجيران السيئين.

تقاليد كردية:

- ما أن تحصد- في موسم الحصاد- ملىء كف من سنابل الحنطة في حقل من الحقول حتى تقشر وتقدم لأول عابر سبيل غريب عن أهل المنطقة، وعلى هذا الغريب أن يقبل الهدية ويقدم للحاصد قطعة فضية أو ذهبية. ولا يعد هذا من سبيل الاستجداء مطلقاً فهي عادة قديمة ترمز الى مشاركة المسافر في فرحه أول ثمرات الارض. (هاملتون ص٥١).
- الاكراد لايغلطون او يتصايحون فيما بينهم عند الكلام، لكنهم معتادون على الصياح المفاجىء والصراخ. فأذا اراد كردي ان ينادي آخر، او يجذب أنتباههُ اليه صاح بأعلى صوته ((هو حه مه كه هو- بتطويل النداء- حه مه كه هو،هو، هو وورررا، وورررا)) فيجيبه المنادي بالصيحة نفسها، هكذا ينادي الكرد بعضهم بعضاً من تل الى تل (ريج ١٨٢٠).

الرقص والاغاني الكردية:

الرقص او الدبكة الكردية ممارسة واسعة الانتشار في المناسبات والافراح، انواعها بالعشرات، فلكل منطقة او قبيلة رقصاتها الخاصة رغم تشابه بعض الحركات إلا أن لكل رقصة اسلوبها الخاص واسمها الخاص. لكن جميع الرقصات الفلكلورية الكردية تتطلب ادوات موسيقية شعبية تجعلها اكثر اثارة واصالة من الادوات الموسيقية المعاصرة، وكل ماتتطلبه الدبكة هو الطبل والمزمار وهي آلتان موسيقيتان تختلفان عما لدى الشعوب الاخرى في شكلها واصواتها. يسطف الراقصون في صف طويل مختلط، من الذكور والاناث، وقد يصدح احد المغنين ايضاً مع الموسيقى، وفي كثير من الحالات يمسك قائد السرب الراقص منديلاً زاهياً بيده يهزه مع نغمات الاغنية الراقصة، وتقام الرقصات الشعبية في المناسبات فقط، منها الزواج والختان وعيد نوروز وعند خروج الناس للتنزه، وفي حالات الولادة والمناسبات الوطنية. وقد اشار المرحوم محمد توفيق وردي الى ان هناك ثلاثين نوعاً من الدبكات الكردية، اسهلها واشهرها هي (اليسارية) أي تحرك الرتل الراقص نحو اليسار بايقاعات سهلة، وهناك دبكتان خاصتان بالفتيات الباكرات.

أما الغناء الكردي فهو اقدم انواع الفنون الفلكلورية، فهو من الفنون القديمة قدم الانسان في جبال كردستان. ولعل اغاني الرعاة هي الاقدم عمراً من اغاني سكان القرى الزراعية التي ظهرت فيما بعد. ويعتقد البعض بأن الاغنية او التراتيل الدينية هي الاقدم في المجتمع، مع ذلك فكل هذه الاغاني والتراتيل الشعبية كانت تعكس المشاعر والاحاسيس والعاطفة والحسرات بأختلاف المناسبات والتقاليد.

الالعاب الشعبية الكردية:

الالعاب الشعبية عديدة لا يمكن سردها بأجمعها هنا. فهي تمتد من المصارعة والالعاب الميدانية والالعاب المسلية الى العاب القدرات الذاتية الفذة، والعاب الذاكرة والنسيان والفروسية واطلاق النار والمحيبس وامثالها، ولعل اطرف الالعاب الشعبية الكردية هي مايعرف بلعبة (رفع الميت بأربعة اصابع): ملخصها: يشترك في هذه اللعبة خمسة لاعبين احدهم يحيل نفسه ميتاً ويمتد على الارض. اما الاربعة الآخرون فيتوزعون: اثنين على يمين الميت واثنين على يساره، ثم يبدأ احدهم بالهمس في اذن الثاني ويهمس الثاني بأذن الثالث وهكذا الرابع وعند الانتهاء من كلمة السر يضع كل واحد منهم اصبع السبابة تحت ظهر الميت ثم ينشد الاربعة:

واحد منا واثنان منهم
اثنان منا وثلاثة منهم
ثلاثة منا واربعة منهم
اربعة منا وخمسة منهم
لنذهب الى ملك الجان

لنقل له: لقد مات عندنا رجل نريد ان نرفعه الى اعلى. عندئذ يقوم الاربعة معاً بالصفير ويرفعون الميت بسهولة! لكن شريطة ان لا يرددو عبارة (بسم الله) وان لايضحكوا.

الاسماء الكردية:

هناك مسألة طريفة في بعض الاسماء الكردية في بعض مناطق كردستان، وهي ظاهرة ملفتة للنظرلغير الكردي، اذ تشيع هناك ظاهرة اختصار اسماء الاشخاص عند الكرد او استخدام الاختصار للتحبب، وان كان بعضها يختلف عن الاسم الاصلي، فـ (حمه) هو من (محمد) و (رمه) من (رمضان)، و(ره شه) من (رشيد) وهناك مختصرات مشابهة كـ (عبه) من (عبدالله و(بله) من (ابراهيم) و (خوله) من (محمود). و(مجه) من (مصطفى) و (ناله) من نادر و (قاله) من (قادر). وتشيع ايضاً مع الاسماء صفة النعوت مثل (احه رقش) اي احمد الاسود او الاسمر و (حمه شين) اي محمد ذو العينين الزرقاوين و (مجه بجكول) اي مصطفى الصغير.

والظاهرة الأخرى في الأسماء الكردية، وبخاصة في الريف، هو أن ينادى الطفل بأسمه مضافاً الى أسم أمهِ، مثلاً، أحمد بن فاطمة (ئةحةى فاتم)، وحسين بن بصيرة (حوسةى بةسى)، ومحمود بن خديجة (خولةى خةجى)، والسبب في ذلك هو سهولة تمييزهم بسبب وجود أكثر من طفل يحمل هذا الأسم وقد تكون أسماء آبائهم مكررة أو متشابهة أيضاً.

التصوف في كردستان:

كانت الحياة الصوفية ومذاهبها تحتل حيزاً رحباً من الحياة اليومية في كردستان، ففي كردستان تسود طريقتان صوفيتان رئيستان هما: القادرية والنقشبندية. اوجد الطريقة القادرية المولى الشهير الشيخ عبد القادر الكيلاني (الجيلي) ١٠٧٧- ١١٦٦ وظل سليل المؤسس يناط به منصب شيخ الطريقة وسادن الحضرة في بغداد وكانت الحكومة العثمانية تخلع عن هؤلاء بالتعاقب الوظيفي لقب (نقيب الاشراف) وتنتشر هذه الطريقة في مناطق عدة ابرزها السليمانية واربيل. وفي كردستان يطلق على اتباع الطريقة القادرية بأسم الدراويش. وكان من رجالاتها البارزين في السليمانية كاك احمد الشيخ والد الشيخ محمود الحفيد.

اما الطريقة النقشبندية فقد اوجدها محمد بهاء الدين البخاري ١٣١٧- ١٣٨٩ وقد أنتشرت هذه الطريقة في الجزء الشمالي من كردستان وفي سوريا ومصر. ويطلق على مريدي هذه الطريقة اسم (الصوفية). وكان ابرز شيخ لهذه الطريقة في عام ١٨٢٠ هو مولانا خالد النقشبندي، وفي عام ١٩٢١ كل من الشيخ علي حسام الدين ته ويله وشيخ علاء الدين بياره.

الملابس الكردية:

لباس الكردي فريد ومتنوع وخاص، هو نتاج البيئة الجبلية واعمالها الشاقة وطبيعتها الخلابة الزاهية. وهو فوق كل ذلك لباس مكلف ماديا، ومتعدد اللوازم والحاجات:

غطاء الرأس: يتكون من الطاقية او (الكلاو) او (التبلة) وهي قبعة صوفية قوية، ويلف حولها (الميزر) وهي عمامة تتألف من الطاقية يلف حولها قطع قماش مربعة (جامانة) او (مشكي) او (جفته) بحسب نوعها.

اما لباس الكردي فيتألف في العادة من قميص قطن ابيض ذي اردان طويلة وسروال (شروال) فضفاض وسترة تتقاطع من الامام فوق البطن ومطوية في السروال. ويلف الكردي حول خصره قطعة طويلة من القماش يبلغ طولها مابين ٤-٥ أمتار (الحزام) وعندما يلف يشغل المساحة الكائنة بين الخصر والبطن. كما يلبس فوق سترته معطفاً من اللباد الخشن ابان الطقس البارد، واللباس الكردي نوعان (الشال والشبك) او (الرانك والجوغة). ويختلف النوعان من حيث القماش المستخدم او الموديل او التفصال.

ولابد من الاشارة هنا، بشكل خاص، الى الحزام الكردي، فهو يستخدم في كل مناطق كردستان لكن طوله وشده يختلف من منطقة الى اخرى ومن قبيلة الى أخرى، ولهذا الحزام ضمن البيئة الجبلية لكردستان فوائد شتى:

١- يشد من عضلات الظهر والبطن عند اداء الاعمال الصعبة والشاقة. وفي تسلق الجبال العالية.
٢- يحمي الظهر والبطن من البرد.
٣- يتحول الحزام في حالات معينة الى نقالة في حالة الاصابة بالحرب، او عند نقل الامتعة.
٤- يحمل العتاد والخنجر.
٥- فضلاً عن خاصيته الجمالية الجذابة وطابعه الكردي فهو مكمل للزي الكردي وجزء مهم منه والذي هو بطبيعته هوية قومية مميزة للكرد.

ملابس المرأة الكردية:

أما ملابس المرأة الكردية فهي ملابس زاهية مثل زهو البيئة الربيعية الجبلية لكردستان. وأبرز ما يميز هذا الزي هو الرداء الملون اللماع الفضفاض الطويل، والزخمة الذهبية، المحلاة بأقراص فضية أو ملونة، ثم السروال الطويل الذي تتناغم الوانه، في أطرافه السفلى، مع لون الرداء الفضفاض. والشائع هو أن تحتفظ المرأة مع زيها بغطاء مميز للرأس محلى بالحلي والمخشلات. ومن محاسن ومكملات زي المرأة الكردية هي الاكسسوارات الذهبية أو من الأحجار الكريمة والخرز التي تضفي لهيئتها رونقاً وبهاءً متميزين، كما في الصورة.

الحديث عن التراث والفلكلور الكردي حديث طويل لايمكن اختصاره لانه شامل لكل مناحي الحياة الكردية بحلوها ومرها، فهناك مجال للاحاجي والملاحم والادوية النباتية وتفسير الاحلام والحزورات واخلاقيات المائدة والطعام والتعامل مع المرأة والاطفال ومجال الديوان (الديوه خانه). ان الفلكلور الكردي سجل حافل يعكس لنا الحياة الاجتماعية الاصيلة والسلوك المتزن المتين لشرائح المجتمع الذي انجب كل هذا التراث الناصع المجيد.

من المحرر

حكاية (سوالف) تنتشر عبر القارات

باسم عبد الحميد حمودي

انتشرت الحكاية الشعبية التي يرويها الراوي الشعبي المغربي محمد المرابط في كل أرض وبمختلف اللغات الحية.

دفعت له مجلة(رولنغ ستون) ١٥٠٠ دولار عن واحدة من حكاياته القصيرة وصدرت له بالانكليزية وحدها اكثر من عشر حكايات طويلة يسميها خراريف ويسميها روايات ومنها: المرآة الكبيرة - الليمون -الحب ببضع شعيرات-حديدان الحرامي- وغيرها كثير.

ابدى هنري ميللر اعجابه بحكايات المرابط لاصالتها وزاره تنيسي وليامز في طنجة وهو يحمل معه نسخة من حكاية (المرآة الكبيرة) معجباوكذلك (بوروز) وآخرون من الكتاب والمشتغلين بالحكاية الشعبية.

سر انتشار حكايات وخراريف وسوالف الرجل الامي الطنجاوي محمد المرابط هو وجود الكاتب بول بولز الى جواره حيث يقوم المرابط بالحكي مقابل آلة التسجيل فيما يقوم بولز بترجمتها عن العامية المغربية الى الانكليزية وارسالها الى الصحف ودور النشر.

> ابدى هنري ميللر اعجابه بحكايات المرابط لاصالتها وزاره تنيسي وليامز في طنجة وهو يحمل معه نسخة من حكاية (المرآة الكبيرة) معجباوكذلك (بوروز) وآخرون من الكتاب والمشتغلين بالحكاية الشعبية.

من جهتنا نقول ان محاولات عديدة جرت سابق الترجمة الحكايات الشعبية العراقية الى مختلف اللغات الاوربية لكنها لم تأخذ هذا النسق الحيوي المكثف بسبب عدم وجود اقلام تتبنى باستمرار هذه التجربة المهمة بالتعريف بالحكاية العراقية على صعيد عالمي رغم تنوع مضامينها وخصوبة التجارب الانسانية فيها، السنا اصحاب كلكامش والف ليلة وليلة وحكايات البادية والجبل والاهوار؟

يقينا ان امرا كهذا يحتاج الى رأي ونقاش ولكننا نذكر ان موسوعة الحكاية الشعبية العراقية المعدة للطبع لم تجد حتى اليوم من يطبعها بالعربية فكيف تعثر على كاتب مثل بول بولز ينقلها الى الغرب السعيد مثل ما نقل غالان الليالي الالف يوما؟

المقاهي والأدباء

مثنى كاظم صادق

مقهى الشابندر

المجالس مدارس.... هذا ما يشير إليه المثل الشائع والمجالس اضرب عدة منها المجالس الأدبية إذ تضرب جذور هذه المجالس إلى العصر الجاهلي والعصور التي بعده ولقد اشتهرت المجالس التي كانت تقام في الأسواق مثل سوق عكاظ والمربد وغيرها والتي كان الشعراء يذرعون البوادي ويضربون آباط الإبل كي يصلوا إليها ليسمع بعضهم بعضا ويحكم بعضهم على بعض وبتقادم السنين تحولت هذه المجالس إلى الديارات (جمع دير) والحانات ذلك في العصر العباسي أما في العهد العثماني حين اخذ الناس يشربون ما جادت به سفن البحار من مشروبات جديدة كالشاي والقهوة والقرفة (الدارسين) والحامض وغيرها فضلا عن شيوع ظاهرة التدخين بنوعيه (السجائر) و(النارجيلة) احتاج الناس لتعاطيها في المجالس المخصصة لها فافتتح أول مقهى في بغداد في العهد العثماني وسمي هذا المقهى بـ (خان جغان) وتتالى بعدها افتتاح المقاهي بصور تترى من اجل شرب الشاي والسجائر والنارجيلة والاستراحة من تعب الطريق والتحدث إلى الأقران والخلان ومما يروى إن احد الزائرين للعراق سئل عند عودته عما رآه في العراق فقال: (لقد رأيت بين كل مقهى ومقهى مقهى !!!) يشير بذلك إلى كثرة المقاهي في العراق ولقد اختص كل مقهى بنوعية زبائنه ومريديه فهذا مقهى للبنائين وعمال البناء وذاك مقهى (المطيرجية) وهكذا.. أما ابرز المقاهي التي برزت على الساحة فهي مقاهي الأدباء والمفكرين والتي برزت بقية المقاهي وفازت بالقدح المعلى.. أما القهوة لغة الخمر ولقد استعملت هذه الكلمة - قهوة- لتطلق على البن المغلي لأن البن والخمر يقهيان (يذهبان) بشهوة الطعام والرجل القاهي أي الرجل القوي ذو القلب المستطار قال الشاعر: راحت كما راح أبو رئال / قاهي الفؤاد دئب الإجفال اتخذت المقاهي الأدبية في القرن العشرين طابعا مميزا لأن بعض مريديها وزبائنها يكتبون نتاجاتهم من شعر ونثر على كنبات هذه المقاهي وطاولاتها ومن اشهر المقاهي الأدبية في العراق وبغداد خصوصا مقهى (الزهاوي) وكانت تسمى بالأمين واكتسبت اسم الشاعر لكثرة جلوسه فيها وكذلك مقهى (البرازيلية، البرلمان، البلدية، السويسرية، المعقدين، الشابندر، حسن عجمي، الخ) فقد فضل المثقفون ارتياد المقاهي لأن المقهى بمساحته الصغيرة وكنباته المتقابلة والمتعاكسة تتيح لهم رؤيا واسعة للمجتمع وأخباره وهمومه وبالتالي المعرفة بهذه الأمور تؤدي إلى المعرفة بالحياة فضلا عن ذلك فإن الجلوس في المقهى ورؤية الخارج من شارع ممتد مترام الأطراف بتفرعاته الكثيرة وحركة الناس فيه جيئة وذهابا -بل مجرد مراقبة هذه المناظر - تجعل الإنسان مشحوذ العقل كثير التأمل والتفكير في أحوال هؤلاء المارة ومن يطلع على نتاجات أدباء المقاهي -إن صح المصطلح- يجد في شعرهم ونثرهم ما هو يومي ومتداول على السنة الناس بصورة واضحة وفي مقهى الزهاوي نفسه كان الزهاوي يرد على مقالات عباس محمود العقاد وفي هذا المقهى أيضا اشتعلت الفتنة والخصومة التي طالت الزهاوي والرصافي التي أذكى جذوتها أحمد حامد الصراف التي ترك على إثرها الرصافي الجلوس في هذا المقهى بل إن المقاهي الأدبية لتزدهر بالزائرين لوجود الشخصيات الأدبية فيها لاسيما المشهورة منها فالمقهى يلبي حاجة روحية للإنسان للتداول والمباحثة حول أمور الحياة المتعبة من هموم سياسية وأدبية واقتصادية واجتماعية وغيرها ومن أبرز رواد المقاهي من الأدباء والمفكرين على سبيل المثال لا الحصر نذكر (حسين مردان، بلند الحيدري، السياب، زهير احمد القيسي، غائب طعمة فرمان، رشدي العامل) وغيرهم ممن تطول القائمة بذكرهم ومع شرب الشاي وتدخين السجائر تبلورت الحركة الأدبية والفنية في العراق واصدرت منها المجلات الأدبية والصحف وفيها كانت تكتب مسودات القصص والروايات من قبل أدباء العراق ومفكريه الذين جلسوا في هذه المقاهي ليستريحوا من تعب العمل أو الدراسة أو السفر وغيره فوجدوا في المقهى خير ملاذ كي ينفقوا فيه أفكارهم لتتلاقح مع أفكار أقرانهم فإلى أدباء المقاهي وفنانيها تحية وسلام.

مظفر النواب ينقش قصائده فوق قلوب الفقراء

زهير كاظم عبود

منذ أن خط كلماته الأولى وهو يرسم أحاسيس الفقراء والمعذبين والمضطهدين من الناس، أستل احاسيسهم الحقيقية، وأدرك عمق معاناتهم، وتنفس رائحة الاكواخ والصرائف والبردي، ثم وقف في طوابيرهم ينتظر الامل ويحلم بالغد المشمس ورغيف الخبز المداف، ومنذ بواكير اعماله انحاز مظفر بن عبد المجيد نحو الفقراء، يتقاسم وإياهم مرارة الكلمة ويتعاطاها معهم سرا داخل أرغفة خبز الشعير أو ضفائر الفلاحات اللواتي يتحزمن بعباءاتهن في فصل الحصاد، يصير جزء من محنتهم، ويرفع مع الرجال بيارغهم ويكتب هوساتهم، وترك آثار اقدامه فوق جرف الهور عند حدود الغموكة أو الحمار أو الجبايش والفهود، مظفر النواب يتحرر من أهازيج التحدي والعطاء والتضحية التي يقدمها صوراً لتحدي العراقيين في الزمن الحنظل، يعود يهزج وسط حقول الشلب أو فوق جبايش القصب، أو سابحاً في عروق العمال وحرقة العاطلين ولهفة الجياع وشوق السجناء، فأنه لا يلبث ان يرتد اليهم حتى وان عبر السدة بقطار العشق الحديدي، والعمر الذي مر عليه قيظاً وعاد يمر قيظاً آخر لكنه يرتد مع سؤال مظفر الإنسان عن لوعة الغياب ووحشة الطريق، بعد ان يترك علاماته الفارقة في خطوط الشعر الفضي، أملاً في ان يعود الغائب ويعيد الزمن تركيبة أيامه فينصف الفقراء. والرمز الذي يتعلق به الفقراء في أن يكون لهم بيت وان تتوفر لهم ارغفة الخبز يصير قصيدة من الشمس، ويصوغ قلائد قصيدته من كرامتهم ولا شيء أكثر من هذا، ذلك هو الأمل الذي بات منقوشاً ليس فوق العيون والقلوب، وانما حتى في احلام فقراء العراق الذين لم يزالوا يحلمون بالشمس والخبز، ومن يعرف مظفر النواب يستطيع ان يتذوق طعم الكلمة، ويشعر بملحها العراقي الطيب، ولهذا تجد مفردات عراقية تنبع من بين ثنايا الروح العراقية لا يجيد توظيفها احد من الشعراء مثلما استطاع النواب ان يوظفها، فقدرة مظفر على الولوج الى اعماق الروح وفر له الامكانية في استلال المفردة الشعبية من بين تلك الارواح الهائمة، وحين تخضع ملحمة (حجام البريز) الى التصوير البطيء، يستطيع المتمعن بدقة ان يفرز الصور العميقة والدفينة التي تمكن مظفر من انتقائها خلال تصويره تلك الملحمة، وحجام البريز ليس فقط فلاحاً يناضل ضد السلطة وليس فقط مضحياً بأغلى ما يستطيعه الإنسان ضد السلطات الغاشمة، وانما يرسم صوراً لتاريخ واحزاب ومواقف وصوراً، يستطيع القارئ ان يتلمسها في بساطة الكلمات وروعتها، وفي عمق حروفها ودقة صورها، فمن صورة اليد التي تسبح وهي مقطوعة الاصابع، الى الشمس التي تسقي الحقول بحزمات اشعتها الذهبية، مروراً بأصرار العراقي الذي يعتز بترابه وبأداة الحفر (المسحاة) التي تورثها منذ العهد السومري، وما بين الشمس والطين يأتي السلاح وهو السلاح الذي تحضنه الروح، ويضمه المقاتل الى صدره، فيصير حبيباً ورفيق درب، وتصير تلك الكتلة الحديدية الصماء، عشيقة لا يفارقها ليلاً أو نهاراً، وحتى لا يغلبه النعاس أو تأخذه الغفلة، تلك الغفلة التي أخذت منا ومن اعمارنا وتاريخنا واحزابنا الكثير الكثير، والفتاة (سعيدة الحلوة) التي كانت تنقل التمر الزهدي مع الرصاص عبر مياه الهور، وتحت اكوام القصب العائم فوق اسرار سومر وبابل وطين أور وأكد، وتلك المشاحيف التي تشبه الرحيل نحو عوالم لا يدركها الناس في تلك المجاهيل ودموع تتكسر عند حد الجفن فلا تنساب الا خلسة، وما بين صوت صرير عربات القطار، والتواء القاطرات المنسجم مع صفير القطار ودخانه الأسود الحزين، ومع كل هذا فأن الريل بصريره وآهاته والتواءات جسده وحده من يعبر عن تنهدات العشق وأحاسيس الموجوع دون كلام، فيصيح صيحة القهر وتسمع دقات القلب مع ارتطام خشبة الجاون لسحق القهوة في مضايف سعود، وذلك سعود الذي صار علماً يشار اليه، وصبغ بدمه هذا البيرغ دون ان تقدر عطابات الدنيا وتوقف النزيف، فالروح نازفة مادام الظلم طاعناً في أرواح الفقراء، يتسلل الى عظامهم فينخرها، مادام هناك برد وجوع، وأنهار وعطش، وقطارات تروح وتجيء دون سفر، ومظفر يكتب كلمات تنبع من الروح المنذورة لفقراء الناس، العصافير وحدها تزور الفقراء في اكواخهم، وتسامر اطفالهم، والعصافير وحدها من تسافر دون جوازات سفر، وتنتقل بين شبابيك العاشقين دون وجل، غير ان الفقراء يبقون ملتزمين بقيمهم لا يفترون في عشقهم، ولا يفضحون محبوباتهم، فتزداد صدورهم وجعاً وأسراراً، ويكتفون برائحة المحبين أو في عبورهم امامهم دروباً أو بساتين، فيتعطر الزمن وتزهر المسافات، ولا تفضح عشقهم العصافير، فهي امينة الفقراء، وليس لمظفر النواب الذي عشق بغداد عشقاً دفيناً ان يخفي مجامره فيقول: (ببغداد الوصول من مثلي يعرفج يا مسعدة اليوم مدة وكت ما شفتج يحلوة وآنه ما ترهملي مدة) فتعيده الروح الى رمل الشواطئ ولعبة الدعبل واشجار السدر وظفائر البنات الحلوات وماء النهر الذي ظل امينا، والشريعة التي كانت مرتعاً للطفولة، يخبرها انه ظل وفياً لها كأحلى شرائع العمر، غير انه يتعطش لان يبكي في حضنها وان يشم رائحتها، وان يتذوق طعم نبقها وخوخها وأوراقها الدائمة الاخضرار، للشبابيك التي تخفي اسراراً ووجوها ممتلئة بالحسن، وللسنوات التي تغير الناس، وللاراوح التي فرشت نفسها طابوقاً محلياً في سقوف منازل الفقراء، بديلاً عن جذوع النخل وحصران القصب، وللصيف زمن الفقراء الرحيب، وللشناشيل التي كللت جباه البيوت الفخمة، وصارت نزهة للفقراء واعراسهم حين تمر مواكبهم تحتها، والحزن الذي يعم النفوس. ويبقى مظفر النواب يستقطب العصافير فوق الشناشيل، ويستقطب ايضاً الاكلاك والزوارق الراقصة فوق تموجات دجلة، تختلط بدموعه وشوقه الدفين، مع طول مدة الوقت التي فارقها، وهي تنبش في حشاشة الروح. (اليوم مدة وكت ما شفتج يحلوة ونه ما ترهملي مدة) وها قد عبرت سنين العمر، وكبرت كلمات مظفر التي صاغها الفقراء قلائد وقصائد في اعراسهم، وها قد عبر مظفر محنة الالم الدفين، وحفظ أسرار المحبة، ونثر أحرف قصائده فوق رؤوس السجناء في الحلة والسلمان وديالى والمركزي، ويتزاحم في كلماته مع مطر الربيع وروائح ثياب الفلاحين في الغموكة والجبايش، والغيوم التي يتصورها الفقير خضراء شهية، مشبعة تشبه رغيف الخبز، والمطر الذي يبلل شفاه العطاشى فيزيد صمت اهوارهم حزناً ويزيد السمك وسباتاً ومياههم سكوناً، تلك هي ميزة مظفر النواب الذي بادل كل سلطات الدنيا بأكواخ الفقراء، وأبدل كل ثروات الدنيا برغيف من شعير، ولم يبدل محبته لبغداد بما بقي من كل العمر، وبقيت بغداد والقيم منقوشة على كلا جهتي القلب، اميناً كماء النهر، مستمراً كجريان الفرات، وآه من العمر الذي لا يستريح بين المنافي والفنادق والقفار، ولن يستريح، وآه من العمر الذي لم يسترح بين البنادق والخنادق والحدود الغريبة، وآه من العمر الذي تتزاحم فيه كل تلك القصائد، التي انشدها الأطفال في المدارس أو في البيوت أمام أهلهم، ويغنونها العشاق خلسة أو تبجحاً وصارت لوناً من ألوان علم العراق الجديد وصارت أناشيد ثورية لأحزاب كانت ولم تزل وتغنت بها الأمهات والأخوات وغناها حتى الشرطة السريين خلسة عن رؤسائهم وصارت خيوطاً تحكيها الفقيرات لأولادهن كنزات يتدفأ بها الاطفال الفقراء، وصارت لازمة لمن يكتب في نضال الفقراء، فقد أختص النواب بان يكون منهم ولهم، ولهذا سيبقى النواب معهم وبينهم حياً أو ميتاً، لا يطمح سوى ان يكون لهم، وسبقته كل تلك الكلمات التي انتشرت بين الفقراء منشورات سرية تخبئها الصناديق الخشبية، ويبللها عرق نهود الفتيات، وتهتري من كثرة اعادة قراءتها من قبل رجال العراق المسكونين بمحبة النواب وشعره. وريل الفقراء البطيء صورة اخرى، ورائحة الهيل والقهوة التي يشمها الفقير ولو على بعد قرن من الزمان، فيشبع منها قبل ان يتذوقها، ومحبة الفقراء التي تكتمها النساء فتصير وجعاً اخر غير وجع ظلمها وظلمتها، فتطلقها النساء في مناجاة الاطفال وفي اغاني الفرح، أو زغاريد الفرح وصرخات الحزن، أو في أغاني العمل وتسلية الروح، والقهر الذي يعم الروح، والمناطق الفقيرة التي وصلها أو لم يستطع ان يحل فوقها مظفر، ووصلها بروحه، كل تلك الاماكن لم تزل تنبت فوقها كلمات مظفر تزهر عاماً بعد عام، فتصير اشجاراً وارفة، وقصائده قاسماً مشتركاً من قواسم المتحدثين باللغة العربية، ولهذا لم يعر النواب أي اهتمام للسلطات الحاكمة، فهو خصمها الأبدي وبقي يتجاهلها ويبتعد عن دواوينها، وبقي معتزاً بانحيازه الى الفقراء في كل زمان ومكان.

مظفر النواب